2013 10 01 -0002-2

السفير جريدة السفير 2013©
www.assafir.com

ثقافة

تاريخ العدد ٢٠١٣/١٠/٠١ **العدد** ١٢٥٩٣

فاصلة

«ليالٍ بلا نوم»

احمد بزون

لا أريد أن أقدم نقداً فنياً لفيلم إليان الراهب «ليال بلا نوم» (تبدأ عروضه في ١٠ تشرين الأول الجاري)، فتلك مهمة سواي، أما أنا فقد وجدت نفسي أمام فيلم يتعامل بجدية عالية مع موضوع الحرب الأهلية اللبنانية. غير أن الجدية في مثل هذا الموضوع المصيري مخيفة، لكونها تؤسس لفهم مرحلة حاسمة في حياة اللبنانيين، وأي انحراف بسيط فيها يؤدي إلى شروخ.

أهم ما أثارني في الفيلم أنه يختصر أطراف الحرب برمزين أساسيين، أسعد ومريم، بطلين لأحداث الفيلم ومواده التوثيقية. وبالاختصار هذا تكمن خطورة التجربة، ذلك أن بحر الحرب أو مداها يستحيل اختصاره، وبالتالي لا يمكن لفيلم أن يدّعي أنه عالج موضوع الحرب الأهلية التي استمرت ربع قرن، لأن سياقاتها كانت مضطربة، وتشعباتها مربكة، ومَن كان مجرماً في مرحلة من المراحل صار بطلاً والعكس بالعكس. فأسعد (الشفتري) كان مجرماً، ثم تحول بنظر أعدائه إلى صديق، وبنظر رفاق سلاحه إلى عدو. وقد باتت المسألة عنده شخصية لا وطنية، وإن لم تغب بعض الإشارات السياسية في سياق الفيلم. ومريم، والدة المفقود الشيوعي، مشكلتها شخصية أيضاً، فهي لا تهتم بالحزب الذي قاتل معه ابنها، ولا بمبادئه، يهمها ابنها.

تهرب إليان من النظريات والإيديولوجيات والتحليلات السياسية، لتركز على ماهية الحرب، مجرمين وضحايا، وتذهب بعيداً عن مخاطر الغرق في وحول الحرب، كما يقال، مصوبة على الجانب الإنساني أكثر من السياسي، خصوصاً أن خسائر الحرب البشرية لا تزال مفتوحة على أرقام جديدة، في ظل ما نشهده اليوم من ترددات تلك الحرب نفسها. وإذا تعذر إحصاء القتلة الذي يمثلهم أسعد فإن عدد الضحايا أكثر وضوحاً. فإن الفتى الشيوعي يمثل ١٧ ألف مفقود، إضافة إلى القتلى الذين فاق عددهم مئة ألف، ومع ذلك فإن القاتل بقي في الفيلم متوازناً وقوياً وواضحاً، رغم ما اجتهدته إليان من هزّ صورته وإظهاره مريضاً يسفّ الكثير من الأدوية، في حين ظهرت الضحية مريم على قدر بليغ من الاضطراب والضياع والانهيار.

صحيح أن إليان لاحقت القتلى من موقع إلى آخر، لكنها أذعنت في النهاية لضعف الضحايا ولم تقلب المعادلة. فالسؤال الذي حضرني في نهاية الفيلم: لماذا سمحت لنائب مسؤول مخابرات القوات اللبنانية، أسعد الشفتري، بأن يمارس دور بطل أسطوري يرتكب الآثام العظام، ثم يطهر نفسه ببساطة. فهو على حد قول ابنه بدا مرتاحاً في صورته مع بشير الجميل، ثم هو بدا مرتاحاً وهو ينفصل عن «قوات» جعجع مع إيلي حبيقة، وبالتالي فإن «اعترافاته»، التي هلل لها آخرون، ليست نوعاً من يقظة ضمير، إنما غسل له يشبه غسل الأموال.

لا أقلل من جهد إليان في فيلمها المهم والجاد، الذي أدى، على الأقل، إلى اكتشاف مقبرة جماعية، وفضح ممارسات قادة الحرب، غير أنني أعترض على بعض الزوايا التي انطلقت منها، لا سيما إهمال الإضاءة على كذبة الشفتري. فهي طرحت عليه كل الأسئلة ما عدا: لو أن حبيقة لم يجرّك بأذياله هل اعترفت بأنك مجرم حرب؟